ويقول عنها : « فهذا جزل من الأول قليلاً .» [١]

والحق أن مفهوم (الرقة والجزالة) كان مرنًا فَضْفاضًا لا يرقى إلى دقَّة مفهوم « الوحشية » كما عرضناه ، حتى إن ثعلبًا – وهو معروف بميله إلى التحديد في مصطلحاته – لم يقدم في وصف جزالة اللفظ إلا ما يدور في المعاني نفسها التي أوردتها ، فهو يقول : « فأما جزالة اللفظ فما لم يكن بالمغْرِب البدوي ، ولا السفساف العامي ، ولكن ما اشتد أسْرُه ، وسهل لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتوهم إمكانه .» [٢]

ويمكن – من بعض الوجوه – أن يتَّصِلَ مفهوم (الوحشية) و (الجزالة) بما قال به النقاد عن اللفظة الساقطة العامية ، باعتبارها النقيضَ المباشر لكل من المصطلحين السابقين ، وبهذا التقابل يمكنهم التوصُّل إلى الحد الوسط ، وهو الحد الأثير عند عامة العرب . وهذا ما أكده الباقلاني عندما رأى أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس ؛ ولذا فإن على المنشئ أن يوقع اختياره علُى ألفاظ قريبة في دلالتها علي المراد ، و واضحة في إبانتها عن المعنى المطلوب ، مع ملاحظة ألا يكون اللفظ مُسْتَكْرَه المطلع على الأذن ، ولا مُسْتَنْكَر المورد على النفس ، حتى يتأبّى بغرابته عن الإفهام ، أو يمتنع بتعويص معناه عن الإبانة ، كما يجب على المنشئ أن يتجنب ما كان عاميَّ اللفظ ، مبتذَلَ العبارة ، ركيك المعنى ، سفسفًا في الوضع ، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهَّد ولا طريق موطَّد ، « وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع .» [٣]

---

(١) أبو هلال : الصناعتين ، ص ٢٦ . (٢) ثعلب : قواعد الشعر ، ص ٥٩ . (٣) الباقلاني : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ . ص ١١٧ ، ١١٨ .